جامعـــة الأزهـــر

مجلة
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنـــات بســـوهاج

العـــدد التاســـع

١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م

دكتـــور
محمـــود جمعـــة أميـــن

القصة في الشعر العربي القديم

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ « القصة فى الشعر العربى القديم » ـ

تمهيد :

ـ ١ ـ

دعانى الى هذا البحث ما قيل من أن الشعر العربى القديم خلا من القصة وأن كثيرا من البحوث والمقالات والكتب ينفى بعضها أن يكون للعرب قصة ، وبعضها الآخر يقول : « ان العرب وان كانت لهم حكايات يتلهون بها ويسمرون الا أنها ليست لها قيمة فنية ولا ترقى أن تعد جنسا أدبيا(١) » وبعضها يقرر أن القصص التى وردت فى أشعارهم موضوعة منحولة(٢) . بل لقد بلغ ببعض المنكرين ـ خاصة المستشرقين ـ أن يشيع : أن العرب أقل من أن يكون لهم قصص اذ هم كما يزعمون بدو وثنيون ليست لهم ثقافة وليست لهم حضارة .

---

١ ـ انظر « النقد الأدبى الحديث » د. محمد غنيمى هلال . تحت عنوان « تطور مفهوم القصة فى الأدب العربى » ص٥٢٣ ، دار العودة بيروت سنة ١٩٧٣ .

٢ ـ انظر « فى الأدب الجاهلى » د. طه حسين ص٧٠ ، الطبعة الثالثة عشرة ، دار المعارف .

وقد تولى كبر هذه الاشاعة المستشرق الفرنسى « أرسنت رينان » فى كتابه « تاريخ اللغات السامية » ذاهبا الى أن العربية لم تقدم ظاهرة أدبية تستحق التقدير وأنها عارية عن أى فضل أو قيمة وأنها مفلسة من الفن القصصى(٣) .

كما أنكر على العرب قدرتهم على القصة أيضا المستشرق « ديبور » فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام »(٤) .

وقد سلك كثير من الباحثين والدارسين العرب هذا الطريق أيضا . وهم فى هذا المسلك غافلون عن الهدف الاستشراقى من وراء ذلك الافتراء والتقليل من شأن التراث العربى ورميه بالنقائص وأنه عالة على غيره من فكر الأمم الأخرى وحضارتهم .

وكان الأولى قبل أن يقتفوا أثر المستشرقين أن ينظروا فيما خلفه العرب من تراث وأن يتفحصوه بدقة وعناية ، ولو أنهم فعلوا ما اتبعوا مقالة المغرضين .

هذا . وقد انتظم البحث العناصر الآتية :

١ ـ نشأة القصة .

---

٣ ـ تاريخ اللغات السامية ص ٥٤٠ طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٢٩ م .

٤ ـ تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص٢٦ ، ترجمة وتعليق عبد الهادى أبو ريدة ، القاهرة سنة ١٩٥٧ م .

٣ - متى عرف العرب الفن القصصى .

٣ - أدلر تثبت وجود القصة فى الأدب العربى منذ العصر الجاهلى .

٤ - القصة الشعرية ونماذج لها .

٥ - الخصائص الفنية للقصة ومدى تطبيقها على القصة الشعرية فى العصر الجاهلى .

والآن أشرع - مستعينا بالله مستمدا منه العون والتوفيق - فى تفصيل هذه العناصر :

- ٢ -

(أ) نشأة القصة

فى البداية أود أن أذكر أن القصة فى شكلها الفنى الحديث آخر الأجناس الأدبية ظهورا غير أنها فى الوقت نفسه من أعرق ألوان الأدب تاريخا حيث جاءت استجابة طبيعية لرغبة الانسان منذ نشأته .

فمنذ أن جاء الانسان الى الحياة كان عليه أن يسعى طلبا للعيش . فهو ينتشر فى الأرض لاجتناء الثمر والاشتداد فى طلب الصيد جلبا للقوت .

وربما صار فى سعيه هذا من الطلب الى الهرب ومن الهجوم الى الدفاع . فاما نصر ونجاة واما هزيمة

وهـلاك ، وانـه فى صراعـه ذاك ـ طلبـا أو هـرباً ـ لتختلف عليـه ألـوان من الأحاسيس وتتراءى لـه ضروب من الصـور بعضـها حـق واقـع وبعضها من صـنع الفـزع وتخييل الأوهام فـاذا كـان لقـاء العـودة من رحـله الصـيد بعيداً عن شواغل الحيـاة والعيش وكانت ثمـة جلسـة مطمئنـة فى هـدأة آمنـة حـول نـار موقـدة تفتحـت أبـواب الـكلام وتهيـأت الاذان للاسـتماع ويروح كـل يـروى أحـداث نهـاره الكـادح ويصف ماكـان فيـه . وقـد تقبـل عليـه الدنيـا فيعيش منعمـاً فى خيراتهـا فارغـا من همومهـا واثقالهـا فيمـلأ فراغـه بسـمر « تلعب فيـه الحـكاية دوراً ملحوظـاً خرافـة تمثـل خـوارق الطبيعـة أو مجـونا يدغـدغ عـواطف السـمع أو سخرية تثـير الضـحك أو مركبـا للوعظ والتربيـة »(٥) .

وهـكذا نشـأت القصـة منـذ أخـذت الحيـاة تدب عـلى وجـه الأرض وسـعى لهـا الانسـان سعيها ضـارباً فى الأرض مبتغيـا من فضـل اللـه متخذاً من الحيـوان عـونا لـه فى كفاحه من أجـل البقـاء ، ولهـذا كانت الصـلة بين الانسـان والحيوان مصـدر أدب قـوى فهـو يصـف الحيـوان وصـفا خارجيـا أو يتحـدث عن منافعـه ويذكـر بعض خصـال الخـير فيـه . أو يصف جمـال منظـره . أو يقص بعض المغامرات فى صيده . وعندنا فى الأدب العـربى الشىء الكثـير من هـذا القبيـل ، فقـد

---

٥ ـ انظـر القصـة القصيرة ص٩ ، د. الطاهـر مكى ، دار المعـارف ط ٦ سـنة ١٩٩٢ م .

تنـاول امـرؤ القيس حصـانه بالوصـف تفصـيلا فى مثـل قـولة :

يزل الغـلام الخـف عن صـهواته

ويلـوى بأثـواب العنيف المثقـل

لـه أيطـلا ظـبى وسـاق نعـامة

وارخـاء سرحان وتقـريب تتفـل

وسـرد لنـا عنتـرة قصـته مع فرسـه حيـن غـطى الدم جسـمه حتى صـار لـه بمنزلة السربال ، عندئذ مـال الفـرس نحـو عنتـرة يشـكو بلغتين لغـة العبرات التى جـرت من عينيه ولغـة الحمحمـة التى بـدت من صـدره :

فـازور من وقـع القنـا بلبـانه

وشـكا الى بعبـرة وتحمحـم

ووصـف النابغـة كلب صـيد ، ووقف طـرفة طـويلا مـع ناقتـه « وكـان القـص على لسـان الحيـوان أقـدم ما عـرف الأدب »(٦) جـاء فى شـكل قصص وأساطير وارتبـط بالحيـوان على نحـو مـا .

---

٦ - المرجـع السـابق .

(ب) متى عرف العرب القصة ؟

يرى بعض الدارسين المعاصرين لفن القصة أن بداية تعرف العرب على القصة انما هى المترجمات عن الفارسية أو الهندية فى العصر العباسى وكان يعنى به ما قام به ابن المقفع فى القرن الثانى الهجرى من ترجمة الخرافات الحيوانية فى كتابه « كليلة ودمنة »(٧) .

ويرى دارس اخر لفن القصص فى كتاب الجاحظ أن فضل السبق الى التأليف فى فن القصة عند العرب يرجع الى الجاحظ فى كتابه « البخلاء »(٨) .

والواقع أن العرب عرفوا القصة منذ أقدم العصور ، فتراثهم حافل بالأشكال القصصية المختلفة الدالة على بروز العنصر القصصى فى أدبهم وأصالته .

يقول محمود تيمور فى معرض حديثه عن القصص فى أدب العرب : « أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القص والاشعار به ، فنحن الذين قلنا فى غابر الدهر : قال الراوى ، ويحكى

---

٧ — انظر — مثلا — « القصة القصيرة فى التراث العربى » ليوسف الشارونى . مجلة الهلال العدد ٥ مايو سنة ١٩٧٣ م .

٨ — انظر . دراسات فى الأدب / فن القصص فى كتاب الجاحظ ص٤٧ لمحمد المبارك .

أن ، وكـان ياما كـان . الى آخـر تلك الفـواتح التى يمهد بهـا القصاص العـربى فى مختلف العصور لمـا يسرد من أقاصيص »(٩).

وقـد شـهد لذلك بعض المستشرقين المنصفين من مثـل « كـارل بروكلمان » الذى يقـول فى حديثـه عن أوليـة النثـر : « لـم يكن الشـاعر وحـده هـو الذى تهفـو اليـه الأعين عند عـرب الجاهلية . بـل كان القـاص يقوم أيضـا مقاماً هـاما الى جانب الشـاعر فى سـرد الليـل بين مضـارب الخيـام لقبـائل البـدو المتنقـلة وفى مجـالس أهـل القـرى والحضـر .

وليسـت هنـاك ـ بطبيعة الحـال ـ تسجيلات معاصرة لهـذه الأقاصيص والمسامرات ولكن تقييدات قـدماء اللغويين والأدبـاء تعكس لنـا روحهـا وطبيعتهـا بأمـانة ودقـة لاسـيما كتـاب الأغـانى وما شـابهه من كتب الأدب .

وكـان القصـاص يستمدون قصصـهم تـارة من الأسـاطير والخرافـات السـائرة المتنقـلة بين الأمـم وتـارة أخـرى من الأخبـار والأحـاديث الخرافية والتاريخية المـأثورة عن العـرب أنفسـهم وعمـن جاورهـم »(١٠) .

---

٩ ـ انظـر « القصص فى أدب العـرب ماضـيه وحاضـره » لمحمود تيمور ص٢٤ ، ص٢٥ .

١٠ـ تاريخ الأدب العـربى « كارل بروكلمان » ج ١ ص١٢٨ ، دار المعارف ط ٣ سـنة ١٩٦٢ م .

ويقـول فى مكـان آخـر تحت عنـوان : « أدب السـمر » : « كثرت عند العـرب قصص الحب والمحبين منذ قـديم »(١١) .

نعـم . نشـأ حـول مضـارف الخيـام وفى مجالس السمر - حيث يجتمـع القـوم - قصص كثـير وكـان القـاص فى هـذه المنتديات يقـوم الى جـانب الشـاعر فى تلبيـة مطـالب القـوم ورغبتهـم فى الاستماع عن الأولين ممـا أثـر عن طسـم وجـديس وعـاد والريـح ومعـرفة حكايات السلف من العـرب وغيرهـم من الملوك والأبطـال(١٢) كقصص ملوك كنـدة والحـيرة والغساسنة . وكثـيرا ما كانت أيـام العـرب وأنسابهم وأخبـار حروبهـم ووقائعهم مـادة خصـبة لقصصهم(١٣) ، وكذلك أخبـار رحـلاتهم وأسفارهم الكثـيرة وما يستتبعها من أخبـار الفتـاك والصـعاليك .

وقـد كانت هنـاك أمـور تدفـع الى الاهتمـام بالقصـة فى المجتمـع العـربى وتشجع على ازدهارها فـوق ما تحققه للنـاس من المتعـة والتسلية بسـبب ما تشتمل عليـه من مظاهـر تمجيـد القبيـلة والاشـادة بماضيها وذكـر أسلافها والتعريف بمفاخرهم ومآثرهـم فكـان ترديـد قصـص أيامهـم وأخبـار وقائعهـم وانتصاراتهم أمـرا محببـا الى نفوسهم الى حـد كبـير .

١١- المرجـع السـابق ج ٣ ص١٣٣ ، ص١٣٤ .

١٢- تاريخ الأدب العـربى / العصـر الجـاهلى . د. شـوقى ضـيف ص٣٩٩ ، دار المعـارف ط ٥ .

١٣- انظـر « أيـام العـرب فى الجاهلية » جـاد المـولى وآخـرين ، ص٤٢ ، ط. الحـلبى بالقاهـرة .

وقد زخرت كتب التراث الكثيرة من كتب السير والتاريخ والأدب واللغة بالمرويات القصصية الكثيرة والتى كانت أصداؤها تتردد فى رحاب الصحراء العربية الواسعة ويتلقفها علماء الرواية من شيوخ القبائل وأعراب البادية الذين كانوا يشافهونهم ويسجلون ما يسمعون منهم . كما كان النسابون مصدرا مهما أخذ عنهم الرواة كثيراً من القصص المتصل بالأحساب والأنساب وأمجاد القبائل ومثالبهم .

من كل ما تقدم أستطيع أن أسجل مطمئنا أن القصة العربية قديمة قدم العرب أنفسهم وأن العنصر القصصى فى الأدب العربى قديم أصيل .

على أنه مما يجب التنبيه اليه سلفاً أنه لن يتصور القصة العربية فى مهدها الأول أن خلت من بعض المقومات التى اشترطها نقاد القصة المحدثون ، اذ أنه يكفى أن يتحقق فيها المدلول العام لفن القصة بحيث يأتى النص القصصى مصورا لحدث متكامل له بداية ووسط ونهاية . فما كان لأقدم القصص أن ينشأ وثبة واحدة لم تتقدمها خطوات اذ ليس من المعقول أن يولد فن كامل النمو مستوى الخلق .

(ج) أدلة تثبت وجود القصة فى العصر الجاهلى

هناك أدلة كثيرة ولكنى سأقتصر منها على مايلى :

١ ـ اللغـــــة :

وحين ننظـر فى اللغـة العربية من أجـل أن نستبين الصـلة بين العـرب وعنصـر القصـة من خـلال ظاهـرة اللغـة فاننـا نجـد مجموعة من الألفـاظ تـدل بوضـوح على رسـوخ العنصر القصصى من حيث هـو لـون من ألـوان التعبـير الأدبى فى المجتمع العـربى • وهـذه الألفـاظ منـوعة بحيث تعطى دلالـة عـلى تنـوع الآثـار القصصية تنوعـاً يلائـم البـاعث للأثـر القصصى من ناحيـة ويلائـم وظيفته التى يـراد لهـا أن يحققها من ناحية أخـرى •

كمـا تؤكـد هـذه الألفـاظ أن العقلية العربية كـان لهـا عـلم بالابداع القصصى بوجـه عـام •

من هـذه الألفـاظ « الحـكاية » وهى تحمـل معنى المحاكاة التى هى مرتبطة بمحاكاة الواقـع وكـأن المتحـدث بهـا يتحرى أن يصـور الواقـع الذى حـدث •

وهنـاك أيضـاً « الروايـة » وهى تعنى نقـل الحـديث من شخص الى آخـر ، وكـذلك « المقـامة » وهى فى الأصـل من المقـام وهـو المـكان الذى يقـوم فيـه المتحـدث الى القـوم كمـا يطلق أيضـا على القـوم المجتمعين فى المكان الذى هـو بمثـابة المنتـدى يسـتمع فيـه القـوم من أحدهـم الى سـرد الأحـاديث والأخبـار • قـال زهـير :

وفيهم مقامات حسان وجوهها
وأندية ينتابها القول والفعل

وهناك « السمر » وهو يطلق على حوار الأصدقاء فى الليل وما يرد فيه من أحاديث وأخبار وصار يراد به ذلك الحديث الذى يتناول فى تلك المجالس الليلية . وقد ضاقت الدلالة شيئا فشيئا حتى صارت تعنى ضرباً من الحكايات والقصص المتميزة بنوع من السرد القصصى والتى يراد منها تزجية الفراغ فى الليالى المقمرة وقد اجتمع القوم لتحديث والاستماع .

كما نجد أيضا « الخرافة » وهى كما قال الليث : « الخرافة حديث مستملح كذب »(١٤) .

وكذلك « الأسطورة » وهى تعنى الحديث الباطل الكاذب وجمعها الأساطير أى الأباطيل والاكاذيب »(١٥) .

« والمثل » كما يعنى العبارة المنطوية على الحكمة والرأى السديد فانه يطلق كذلك للدلالة على القصص والحكايات التى كانت الأمثال عنواناً لها « والعرب يمتازون بأمثالهم المبنية على الحوادث لأن الأمثال عندهم نوعان : أمثال حكمية

١٤ـ تهذيب اللغة للأزهرى ج ٧ ص٣٥١ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة / تراثنا سنة ١٩٦٦ م .

١٥ـ انظر لسان العرب مادة « سطر » المؤسسة العامة للتأليف والنشر سنة ١٩٦٦ م .

كقولهم « الجار قبل الدار ، والعتاب قبل العقاب » ونحوهما ممـا يتناقله النـاس وترويهـا الأمـم بعضـها عن بعض ... وأمثـال مبنيـة على الحوادث وهى خاصـة بهـم لأن الحوادث جـرت لهـم كقولهم « وافـق شـن طبقـة ، والصيف ضـيعت اللبن ، وسـبق السـيف العـذل ... الـخ » وهـذه الأمثـال وأشباهها كثـيرة فى أقـوال الجاهلية »(١٦) .

وهـذه الأمثـال والحكم تعـد جـذورا أصيلة للقصة العربية فى العصـر الجاهلى لأن هـذه الأمثـال قـد اشتملت على كثـير من القصص الواقعية والتى ظـل الأحفـاد عن الأجـداد يروون تفاصيلها ويقفـون عند مواطن العبـرة فيهـا(١٧) .

ولعـل أشـهر الألفـاظ العربية التى تـدل على شكل التعبير القصصى وأكثرهـا صراحـة فى ذلك هـو لفـظ « قصـة » الذى يحمـل مدلولا لغـويا حسـنا يعمـق الارتبـاط بالمدلول الفـنى للقصـة .

وفى اللسـان : « والقـاص الذى يأتى بالقصـة على وجهها كـأنه يتتبـع معانيهـا وألفاظهـا »(١٨) .

١٦- تاريخ آداب اللغـة العربية . جورجى زيـدان ج ١ ص٤٧ ، ص٤٨ ط. دار الهـلال ، مراجعـة د. شـوقى ضـيف .

١٧- انظـر القصـة العربية فى العصـر الجاهلى . د. على عبد الحـليم محمـود ص٢٥١ ط. دار المعـارف سـنة ١٩٧٩ م .

١٨- انظـر لسـان العـرب لابن منظـور مـادة « قصص » .

وهكذا تعطينا اللغة دليلا قويا على أصالة العنصر القصصى فى تراث العرب ووعى العقلية العربية منذ القديم لألوان عديدة من أشكال التعبير القصصى .

٢ ـ القرآن الكريم :

من المعلوم يقينا أن القرآن الكريم قد جاء على طريقة العرب فى التعبير ، وأن مفرداته وسائر ألفاظه يعرفون معناها ويستعملونها . ومن هنا فانه يستدل بالقرآن الكريم على معرفة العرب للقصة بما يأتى :

(أ) استعمال القرآن الكريم لكلمة « قصة » ومشتقاتها فى عدة مناسبات . من ذلك قوله تعالى فى سورة يوسف : « نحن نقص عليك أحسن القصص » وفى سورة الأعراف قال تعالى : « فلنقصن عليهم بعلم » وقال : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » وقال : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون وفى سورة القصص قال تعالى : « فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين » وفى سورة هود يقول تعالى : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » الى غير ذلك من الآيات الكريمات .

(ب) ماكان القرآن ينفيه عن نفسه من أنه من قبيل الأساطير أو أنه أساطير الأولين كما كان يزعم كفار قريش . فدل ذلك على أن العرب يعرفون الأساطير ، والا لما نسبوا القرآن بما جاء به من قصص وأخبار الى أنه أساطير ، قال

تعالى فى سورة الأنعام « يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين » وفى سورة الأنفال : « واذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين » وفى سورة النحل : « واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين » وفى سورة المؤمنون : « لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الأولين » ومثل هذه الآيات التى وردت فيها أساطير الأولين على نحو ما ورد فى سورة النمل والفرقان والأحقاف والقلم وغيرها .

(ج) ان القرآن الكريم نزل يحمل بين دفتيه كثيرا من القصص المتنوعة عن الأنبياء وأممهم وهى قصص صيغت فى بناء محكم عجيب يحفل بالعناصر الفنية(١٩) . ولو لم يكن العرب يعرفون هذا اللون من أساليب التعبير القصصية لما توجه به اليهم وخاطبهم به « وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون »(٢٠) .

ومن هنا فورود ذلك القصص الفنى فى القرآن الكريم يعطى صورة صادقة لواقع قصصى كان العرب يعرفونه

١٩ــ انظر « القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه » للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربى ، مطبعة المدنى بالقاهرة .

ويمارسونه ممـا يؤكد أن العـرب ـ قبـل وحين نزول القرآن ـ قـد مارسـوا الشـكل القصصى بطريقتهم الخاصـة .

٣ ـ واقـع الحيـاة الأدبيـة :

كـذلك من الأدلـة على معرفة الأوائل للقصـة واقعهم الادبى حيث شهروا بالفصـاحة وأنهـم أربـاب البـلاغة والبيان وعرف عنهـم الافتنـان فى القـول .

وقـوم هـذا شأنهم لابـد أن يكون لهـم حـظ وافـر من القصص والحكايات ، والبـاحث المتـأمل فى تراثهـم الأدبى يجـد أن واقـع حياتهم الأدبيـة ما كـان يخـلو من ألوان القصـص العـديدة شـعرا كالذى وصلنا مصـورا فى أشعارهم أو نثـراً ذهب فى غياهم المجهـول فيمـا ذهب من أخبـار ماضيهم ولـم يصـل الينـا الا القليـل منـه لصعوبة حفـظ النثـر وبخاصـة الطـويل منـه . فمـن قصص تتحـدث عن الملوك والعظمـاء حياتهم وأعمالهم ، الى قصص تصـف رحلاتهم وأسفارهم وما لقوا فيهـا من أهـوال . ومن قصص عن الأساطير والخرافات على ألسنة الحيوانات وغيرها من أنـواع المخلوقات الى قصص تذكر بطولاتهم وتصـف شجاعتهم فى المعـارك والحـروب . ومن قصص الملاهى والمجـون والنسـاء الى قصص تحكى عن نوادرهـم وفكاهاتهم الى غـير ذلك من الأنواع ، وهـو تنـوع يـدل على ثـراء عقلى وثـراء فى الخيـال وقـدرة فنيـة على التعبـير الأدبى الجيـد القادر على جـذب الانتبـاه واثارة العواطف وتحريك العقـول .

ولعل هذا التنوع بما يحمل من صفات فنية يقوم دليلا وبرهاناً يواجه أولئك الذين أنكروا وجود القصة فى الأدب العربى القديم وأولئك الذين أنكروا على العرب أن تكون لهم عقول كعقول اليونان وأخيلة كأخيلتهم .

(د) القصة الشعرية

لا يشك أحد فى أن العرب قد أقبلوا على شعرهم واهتموا به يقرضونه ويقيدونه ويروونه جيلا بعد جيل حتى قيل انهم كانوا يكتبونه بماء الذهب فى القباطى — وهى أفخم أنواع الأقمشة من الحرير يصنع فى مصر آنذاك — ويعلقونه على أستار الكعبة فهو ديوان علمهم وكنز أدبهم وسجل مفاخرهم .

وقد صور لنا هذا الشعر كل ألوان الحياة العربية فى العصر الجاهلى مع الاعتراف بأن هذا الشعر لم يصلنا كله ولو وصلنا جميعه لوصل الينا عن حياة العرب شىء كثير وأجناس أدبية متنوعة أكثر . وقد أكد ذلك أبو عمرو ابن العلاء حين قال فيما يرويه عنه محمد بن سلام الجمحى قال : « ما انتهى اليكم مما قالته العرب الا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير »(٢١) .

ولقد اشتمل هذا الشعر على قصص انبث فى سياقه

٢١ــ طبقات فحول الشعراء . ج ١ ص٢٣ .

وتشكل أجزاء هامة من موضوعاته . والقارىء لهذا الشعر يجد فيه صورة واضحة القصة العربية مما يشهد للعرب بوعى قصصى .

من أمثلة هذا القصص المنبث فى الشعر الجاهلى :

قصة مقتل كليب وائل فى شعر أخيه مهلهل / قصة أسى جليلة زوج كليب فى شعرها / قصة ابن جليلة الهجرس حين ربى فى حجر خاله ثم اضطر الى قتله / قصة الحارث بن عباد وزوجه أم الأغر فى مقتل ولدهما « بجير » فى الصلح بين بكر وتغلب كما هو واضح فى شعر الحارث / قصة الغدير ودارة جلجل فى شعر امرىء القيس / قصص دبيب امرىء القيس الى النساء فى معلقته / قصة صحيفة المتلمس فى شعره / قصة طرفة بن العبد مع ابن عم له فى معلقته / قصة فتك عنترة بن شداد بكثير من أعدائه فى معلقته / قصة المتجردة فى شعر النابغة / قصة مرقش الأكبر وعسيفه العقيلى الذى تخلى عن المرقش وهو فى رمقه الأخير فكتب مرقش على رحله أبياتاً يطالب فيها أخاه « حرملة » بضرورة قتله / قصة هرم بن سنان والحارث ابن عوف واتمامهما الصلح بين عبس وذبيان وتحملهما دبات القتلى فى معلقة زهير بن أبى سلمى / قصة دفاع عمرو ابن كلثوم عن تغلب أمام عمرو بن هند فى معلقته / قصة دفاع الحارث بن حلزة عن أمجاد قومه فى معلقته / قصة لبيد بن ربيعة فى انتحافه لأبى البراء من الربيع نديم

النعمان حيث استطاع أن ينفر النعمان من نديمه فى قصيدته الرجزية / قصص الفتك والقنص والطرد كما فى شعر الشعراء الصعاليك / قصص المحبين العاشقين التى استفاضت فى أشعارهم • ولو ذهبت أستقصى كل قصة فى الشعر الجاهلى لما وسعتنى صفحات هذا البحث • وحسبى أن أعرض لبعض منها على سبيل المثال •

أمثلة ونماذج للقصة الشعرية :

قلت آنفاً ان القصة العربية قد تعددت موضوعاتها وتنوعت أغراضها فشملت القصة الاجتماعية التى تعبر عن عادات وأخلاق وطبائع المجتمع الذى تعيش فيه كما شملت القصة العاطفية التى تعنى بالكشف عن العلاقة بين الرجل والمرأة ونظرة كل منهما الى الآخر ، وهذا باب واسع من أبواب الأدب العربى نال من العناية والاهتمام ما جعل أحاديثه تنبث فى معظم كتب الأدب وفى كثير من كتب السير والتاريخ ، وقد حمل الشعر العربى لنا كثيرا من هذه القصص أكثر مما حمل النثر لسهولة حفظ الشعر من جانب ولاقبال الناس على الشعر واحتفالهم به أكثر من النثر من جانب آخر • ولهذا بقيت لنا قصص نالت شهرة وذيوعا لما اشتملت عليه من الشعر أو لأنها كلها سيقت فى قالب شعرى •

من هذه القصص : قصص مهلهل بن ربيعة / قصص امرئ القيس / قصص عنترة / قصص المرقش الأكبر / قصص

المرقش الأصغر / قصص أوس بن حجر / قصص المنخل اليشكرى . ولا أستطيع فى هذا البحث أن أستقصى كل أنواع القصة بموضوعاتها ولكنى سأكتفى منها بما يلى :

١ - من القصص الاجتماعى فى اكرام الضيف للحطيئة :

وهى قصة يعرضها الحطيئة فى أربعة مشاهد متسلسلة كل منها يسلم الى الآخر فى وحدة موضوعية :

ففى المشهد الأول نرى أشخاص القصة والمنزل الذى ينزلون فيه : فأما المنزل فمقفر موحش تكتنفه الجبال وتنبسط من حوله صحراء مضلة مجهولة المعالم لا ينزل بها طارق ولا يمر بها عابر . وأما أشخاصها فأسرة مضيعة تتألف من أب فاسد الرأى غلبت الشراسة والجفاء عليه فأصبح يأنس بالوحشة وينفر من الانس غمت الأمور عليه فلا يراها على وجهها ولا يقدرها قدرها . اختلت موازينه واختلط مزاجه وفسد تصوره فاذا البؤس فى رأيه نعيم والشقاء سعادة . أما بقية الأسرة فأم فعيدة عجوز لا تملك من أمرها شيئا وثلاثة أطفال حفاة عراة يجلسون اليها فى عجز واستسلام آضر الجوع بهم جميعا فقد نفد زادهم ولبثوا على الطوى ثلاث ليال فعصبوا على بطونهم ليخفوا من خوائها فاغبرت ألوانهم وضويت أجسامهم ، وكان الصبية أشد تغيرا وأسوأ حالا حتى غدوا أشباحاً هم الى صغار المعز أقرب وبها أشبه . وفى ذلك يقول :

وطـاوى ثلاث عاصب البطن مرمـل

ببيداء لم يعرف بهـا ساكن رسـما

آخي جفوة فيـه من الانس وحشـة

يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

وأفـرد فى شـعب عجوزا ازاءهـا

ثلاثـة أشـباح تخـالهم بهمـا

حفـاة عـراة ما اغتذوا خبز ملـة

ولا عرفوا للبر مـذ خلقوا طعماً(٢٢)

وفى المشهد الثـانى بـدا شـبح مقبل بلغـه الظلام ويـراه الأب فينكره ثـم يتبين أنـه ضيف وهنـا يثقـل عليـه الخطب ويركبـه الهـم حتى يرثى ابنـه لحـاله ويخشى أن يـرد أبـوه ضـيفه ويعتذر اليـه بالعـدم الذى يكابده فـلا يصدقه الضـيف ويعـيره بالبخـل فيتقدم الى أبيـه يسـأله أن يذبحـه ويتخـذ من لحمـه قـرى لضيفه ، ولكن الأب يتـردد بين الاقدام والاحجام وقـد كان الى الاقـدام أقـرب • وكعـادة النـاس اذا مسـهم الضـر يلجـأ الأب الى ربـه فيسأله للضـيف قـرى • وذلك قـولـه :

٢٢ـ ديـوان الحطيئـة ص٢٣٦ ـ ص٢٣٨ ط. الخـانجى سـنة ١٩٨٧ م والبهـم : أولاد المعـز والضـأن ، والملـة : الجمـر او الرمـاد الحـار .

رأى شبحا وسط الظلام فراعه
فلما بدا ضيفا تصور وأهتما

فقال ابنه لما رآه بحيرة
أيا أبت اذبحني ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم عنك الذى طرا
يظن لنا مالا يوسعنا ذما

فروى قليلا ثم أحجم برهة
وان هو لم يذبح فتاه فقد هما

وقال : هيا رباه ضيف ولا قرى
بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

وفى المشهد الثالث يستجيب الله له الدعاء ويحقق له الأمل والرجاء فيرى قطيعا من حمر الوحش يقدمه الفحل الى الماء وهو من خلفه فى صف منتظم فهرع اليه وبه من الظمأ الى دمه أشد مما بالقطيع الى الماء ولكنه لا يعجله بسهمه بل ينتظر عليه حتى يروى ظمأه بالماء، فيصوب اليه سهما صائباً صادف من أتان مقتلا وكانت هذه الأتان فتية مكتنزة اللحم سمينة كثيرة الشحم . يقول :

فبيناهم عنت على البعد عانة
قد انتظمت من خلف مسحلها نظما (٢٣)

٢٣ــ عنت : اقبلت ، والعانة : القطيع من حمر الوحش ، والمسحل : الفحل من هذه الحمر .

ظمـاء تريد المـاء فانساب نحوهـا
على أنـه منهـا الى دمهـا أظمـا
فأمهلهـا حـتى تـروت عطاشها
فأرسـل فيهـا من كنـانته سـهما
فخـرت نحوص ذات جحش فتيـة
قد اكتنزت لحما وقد طبقت شحما (٢٤)

وفى المشهد الرابـع يتهلل الأب بشـرا ويستطار فرحـا حين يقبـل على الأتان يجرهـا الى أهلـه وهى تنزف دمـاً فيغمرهم فيض من الارتياح أن مـدى الله الذبيح ويسـر القـرى فضـلا منـه ونعمـة فأكرموا الضيف وأدوا حقـه عليهـم من الحفـاوة والبـر ومن العطف عليـه حتى كـان الأب لـه أبـاً والأم لـه أمـاً :

فيـا بشره اذ جرها نحـو أهلـه
ويا بشرهم لمـا رأوا كلمها يـدمى
فباتوا كراما قد قضوا حـق ضيفهم
فلم يغرموا غرما وقد غنموا غنمـاً
وبـات أبوهـم من بشاشته أبـاً
لضيفهم والأم من بشرهـا أمـاً

٢٤ـ نحـوص : أتـان ، ذات جحش : مرضـع ، اكتنزت لحمـا : سمينة طبقت شـحماً : كثـرة اللحـم .

وهكذا يمضى الحطيئة بخياله الخصيب يصور فى براعة قصته مع ضيفه مفتعلا المقاولة التى دارت بينه وبين ابنه تعبيرا عن شوق بالغ الى خصال السادة فى قرى الضيف وما يقدم اليه من اكرام وبر وهى خصال من أصل خصال العرب وأرسخها فى نفوسهم .

وتبدو براعة القصة فى تنسيق أحداثها واتساق صورها ووضوح التعبير عنها فى صياغة مصقولة وألفاظ سائغة مختارة يغلب عليها الألفة ويقل فيها الغريب .

٢ ــ من القصص العاطفى .. (قصة المرقش الأكبر وأسماء)

وقد ذكرها أبو الفرج فقال : قال أبو عمرو ووافقه المفضل الضبى قال : كان من خبر المرقش الأكبر أنه عشق ابنة عمه أسماء بنت عوف بن مالك . عشقها وهو غلام فخطبها الى أبيها فقال : لا أزوجك حتى تعرف بالبأس . وهذا قبل أن تخرج ربيعة من أرض اليمن وكان بعده فيها المواعيد ، ثم انطلق مرقش الى ملك من الملوك فكان عنده زماناً ومدحه فأجازه وأصاب عوفا زمان شديد ، فأتاه رجل من مراد أحد بنى عطيف فأرغبه فى المال فزوجه أسماء على مائة من الابل ثم تنحى عن بنى مالك .

ورجع مرقش فقال اخوته لا تخبروه الا أنها ماتت ، فذبحوا كبشاً وأكلوا لحمه ودفنوا عظامه ولفوها فى ملحفة ثم قبروها ، فلما قدم مرقش عليهم أخبروه أنها ماتت ،

وأتوا به الى موضع القبر فنظروا اليه ، وصار بعد ذلك يعتاده ويزوره . فبينا هو ذات يوم مضطجع وقد تغطى بثوبه وابنا أخيه يلعبان بكعبين لهما اذا اختصما كعب فقال أحدهما : هذا كعبى أعطانيه أبى من الكبش الذى دفنوه وقالوا اذا جاء مرقش أخبرناه أنه قبر أسماء ، فكشف مرقش عن رأسه ودعا الغلام — وكان قد ضنى ضنا شديدا — فسأله عن الحديث فأخبره به وبتزوج المرادى أسماء . فدعا مرقش وليدة له ولها زوج من غفيلة كان عسيفا (٢٥) لمرقش . فأمرها أن تدعو له زوجها فدعته ، وكانت له رواحل فأمره باحضارها ليطلب المرادى فأحضرها ايام فركبها ومضى فى طلبه فمرض فى الطريق حتى ما يحمل الا معروضا ، وانهما نزلا كهفا بأسفل نجران وهى أرض « مراد » ومع الغفيلى امرأته — وليدة مرقش — فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها : اتركيه فقد هلك سقما وهلكنا معه ضرا وجوعا ، فجعلت الوليدة تبكى من ذلك . فقال لها زوجها أطيعينى والا فانى تاركك وذاهب ، قال : وكان مرقش يكتب — وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة الى نصرانى من أهل الحيرة فعلمهما الخط — فلما سمع مرقش قول الغفيلى كتب مرقش على مؤخرة الرحل هذه الأبيات :

يا صاحبى تلبثا لا تعجلا
ان الرواح رهين ألا تفعلا

---

٢٥ — الوليدة : الخادمة ، غفيلة ، قبيلة ليس لها شأن بذكر ، العسيف : الأجير .

فلعل لبثكما يفرط سيبنا
أو يسبق الاسراع سيبا مقبلا

يا راكبا اما عرضت فبلغن
أنس بن سعد ان لقيت وحرملا

لله دركما ودر أبيكما
ان أفلت العبدان حتى يقتلا

من مبلغ الأقوام أن مرقشا
أضحى على الأصحاب عبئا مثقلا

وكأنما ترد السباع بشلوه
اذ غاب جمع بنى ضبيعة منهلا

قال الأغانى : فانطلق العقيلى وامرأته حتى رجعا الى أهلهما فقالا : مات مرقش .

ونظر حرملة - أخو مرقش - الى مؤخرة الرحل فقرأ الأبيات فدعاهما وخوفهما وأمرهما بأن يصدقاه ففعلا فقتلهما - وكان قد وصفا له الموضع - فركب فى طلب المرقش حتى أتى المكان فسأل عن خبره فعرف أن مرقشا كان فى الكهف ولم يزل فيه حتى اذا هم بغنم ترد على الغار الذى هو فيه وأقبل راعيها اليها فلما بصر به المرقش قال له : من أنت وما شأنك ؟ فقال له الراعى : أنا رجل من مراد ، قال : فراعى من أنت ؟ قال : راعى فلان واذا هو زوج أسماء . فقال له مرقش : أتستطيع أن تكلم أسماء

امـرأة صاحبك ؟؟ قـال : لا ، ولا أدنـو منهـا ، ولكن تأتينى جاريتها كـل ليـلة فأحلب لهـا عنـزا فتأتيها بلبنهـا ، فقـال لـه خـذ خاتمى هـذا فـاذا حلبت فألقـه فى اللبن فانها ستعرفه وانك مصيب بـه خـيرا لـم يصـبه راع قـط ان أنت فعـلت ذلك ! فأخـذ الراعى الخـاتم ولمـا راحت الجـارية بالقـدح حلب لهـا العنـز ثم طـرح الخاتم فيـه فانطلقت الجارية بـه وتركته بين يديهـا ، فلمـا سكنت الرغـوة أخـذته فشربته فقرع الخاتم ثنيتهـا فأخـذته واستضاءت بالنـار فعرفته . فقالت للجـارية ما هـذا الخـاتم ؟ قالت مـالى بـه عـلم فأرسلتها الى مولاهـا وهـو فى شـرف بنجران فأقبل فزعـا فقال لهـا : لـم دعوتنى ؟ فقالت لـه ادع عبـدك وراعى غنمـك فدعـاه فقالت : سـله أين وجـد هـذا الخـاتم ؟ قـال : وجدته مع رجـل فى كهف خبان . قـال لى اطـرح هـذا الخـاتم فى اللبن الذى تشربه أسماء فانك مصـيب بـه خـيرا وما أخبرنى من هـو . ولقـد تركتت بآخـر رمـق . فقال لهـا زوجها وما هـذا الخاتم ؟ قالت : خاتم مرقش . فأعجـل السـاعة فى طلبـه ، فركب فرسـه وحملها على فـرس آخـر وسـارا حتى طرقـاه من ليلتهما فاحتمـلاه الى أهلهما فمات عند أسـماء فدفن فى أرض مـراد(٢٦) .

وقـال قبـل أن يمـوت هـذه الأبيـات :

سرى ليـلا خيـالك من سـليمى
فـأرقنى وأصـحابى هجـود

٢٦ـ الاغـانى لأبى الفـرج الاصفهانى ج ٥ ص١٨٠ ـ ص١٨٤ ، مطبعة التقـدم بالقاهـرة .

غبت أدير أمرى كل حال
وأرقب أهلها وهم بعيد

على أن قد سما طرف اليها
يصب لها بذى الأرطى وقود

حوالبها مهاجم التراقى
وآرام وغزلان رقود

نواعم لا تعالج بؤس عيش
أوانس لا تروح ولا ترود

يرحن مما بطاء المشى بدا
عليهن المجاسد والبرود

سكن ببلدة وسكنت أخرى
وقطعت الوائق والعهود

فما بالى أفى ويخان عهدى
وما بالى أصاد ولا أصيد

ورب أسيلة الخدين بكر
منعمة لها غرع وجيد

وذو أشر شتيت النبت عذب
نقى اللون براق برود

لهوت بها زمانا من شبابى
وزارتها النجائب والقصيد

أنـاس كلمـا أخلفت وصـلا
عنـانى منهـم وصـل جـديد(٢٧)

وبعـد ، فـانى أكتفى بهـذا المثال من عشرات الأمثـلة التى يمكن أن يستشهد بهـا فى مجـال القصة العاطفية أو حكايات المحبين العاشـقين .

ولقـد زخـرت كتب الأدب بالكثـير من هـذه الحكايات وتلك القصص ، ونـال هـذا اللـون القصصى عناية كبـيرة من الشعراء والأدبـاء حتى ان بعضـهم أفـرده بكتب خاصـة مثـل كتـاب « مصـارع العشـاق فى شـارع الأسـواق » للقاضى عبد العزيز ابن عبد الملك المتـوفى سـنة ٤٤٩ هـ ، وكتـاب « مصارع العشاق لابن السراج القـارى المتـوفى سـنة ٥٠٠ هـ ، وكتاب « الواضح المبين فى ذكـر من استشهد من المحبين » للحـافظ مغلطاى ، وكتاب « أسـواق الأشـواق من مصارع العشـاق » للشـهاب .

وغـير تلك الكتب كثـير ذكرهـا حـاجى خليفـة فى كتـابه « كشـف الظنـون عن أسـامى الكتب والفنـون »(٢٨) .

ولقـد تكفـل الشعر الغـزلى بذكـر تجارب الشعراء العاطفية وما جـرى لهـم من قصص وذكريات مع محبوباتهم . ومن أراد الاسـتزادة فليرجع الى دواوين الشعراء ففيهـا المزيـد .

٢٧ـ المرجـع السـابق باستثناء البيت الرابـع والمفضليات للضـبى ، ص٤٥ ـ ص٥٤ ، ص١٢٨ ، ص١٢٩ .
٢٨ـ راجـع كشـف الظنـون ج ٢ ص١٧٠٢ ، طبعـة بيروت .

٣ ـ من قصص اللهو والمجون :

وهذا النوع من القصص قديم أصيل تضرب جذوره الى مولد الشعر العربى نفسه ، فمنذ استقام الشعر على عوده كان هذا النوع من القصص • يشهد على ذلك شعر الأوائل من أمثال : مهلهل بن ربيعة ، وامرىء القيس بن حجر وعنترة بن شداد والمنخل اليشكرى ، وغيرهم •

وقد عنى بالاستماع الى هذا القصص الشبان الذين كانوا يعيشون حياة اللهو والمجون وربما أحب الاستماع اليه طائفة من أولئك الذين بارحهم الشباب أو بارحوه ليتذكروا بهذا القصص أيامهم السوالف وما كان لهم فى تلك الأيام من لذائذ ومتع فيجدون فى الاستماع الى هذا القصص راحة لنفوسهم وعزاء عن تقدم السن بهم ، بل ربما استمع الى هذا النوع غير هؤلاء وأولئك ممن يرغبون فى التسلية وقتل الفراغ •

وأصحاب هذا القصص اللاهى الماجن موجودون فى كل عصر من العصور وفى كل بيئة من البيئات ، فهم ظاهرة اجتماعية نستطيع أن نتعرف عليها فى كل مجتمع بشرى •

وحينما نريد أن نعلل لظاهرة اللهو والمجون فى أى مجتمع فاننا نراها نتيجة لرغبة طائفة من الناس تثور على الأعراف الاجتماعية وتخرق العادات والتقاليد التى تصادم ما يريدون من متع وملذات ، ومادام لكل مجتمع بشرى أعرافه وعاداته

وتقاليده التى تحكمه وتحكم سلوك أفراده فلابد من وجود أشخاص يخرجون على هذه الأعراف والتقاليد والعادات مهما تنوعت الأسباب التى جعلتهم يخرجون على أعراف مجتمعاتهم . ضرورة أن هذه الأعراف والعادات التى يرتضيها الناس ويتعارفون عليها لا يمكن أن تكون موضع رضى الجميع لتصادم الرغبات واختلاف الحاجات (٢٩) .

والعرب شأنهم شأن غيرهم من الناس كان منهم من تمردوا على نظم المجتمع وخرجوا على أعرافه فكان لهم قصص فى اللهو والمجون والخمر والنساء .

« وكان أغلب الذين انكبوا على لهوهم ومجونهم فى الجاهلية من المخلعين والفتاك والصعاليك وقليل منهم كان من أبناء الكبراء الواجدين الذين حالت ثروات ذويهم بينهم وبين الكد والكدح »(٣٠) .

ومن النوع الأول عدد عديد والقصص عنهم فى مجال اللهو والمجون كثيرة ، ومن النوع الثانى أولئك المرفهون من أمثال امرىء القيس وأمثاله ، ومع هؤلاء وأولئك طوائف كثيرة ممن استجابت فطرهم وغرائزهم للهو والمجون .

ولو ذهبت أستقصى فى هذا البحث قصص اللهو والمجون

٢٩- القصة العربية فى العصر الجاهلى ص ١٥ . بتصرف .
٣٠- المرجع السابق ص١٥٨ .

وما يستتبعهما من مجالس الخمر ومعاقرتها ما وسعتنى هذه الصفحات فللجاهليين شغف بالخمر شديد ولهم فى مجالها عادات وتقاليد وكذلك فى الحديث عن المرأة استفاض بهذا وذاك شعرهم وكثر حوله قصصهم .

وسأكتفى بالقليل مما بقى لنا من هذه القصص . وامرؤ القيس - فيما أظن - هو صاحب أولية هذا اللون من القصص وقائد الشعراء اليه . وفى شعره وخاصة المعلقة أمثلة منه من ذلك :

قصته يوم دارة جلجل :

وقد وردت هذه القصة فى كتب الأدب مثل الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى والشعر والشعراء لابن قتيبة وتناقلتها كتب كثيرة من كتب السير والتاريخ والأحياء وجاءت فى الشعر والشعراء على النحو الآتى .

يقول ابن قتيبة : « وكان - امرؤ القيس - من عشاق العرب والزناة وكان يشبب بنساء : منهن فاطمة بنت العبيد ابن ثعلبة بن عامر العذرية وهى التى يقول لها : « أفاطم مهلا بعض هذا التدلل » ومنهن أم الحرث الكلبية وهى التى يقول فيها :

كدأبك من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل

ومنهن عنيـزة وهى صاحبة يـوم دارة جلجـل . قـال محمد ابن سـلام : حدثنى راويـة للفرزدق أنـه لـم يـر رجـلا كـان أروى لأحاديث امـرىء القيس وأشـعاره من الفرزدق ... قال : قـال الفرزدق : أصابنا بالبصـرة مطـر جـود فلمـا أصـبحت ركبت بغـلة لى وصرت الى المربد فـاذا آثـار دواب قـد خرجت الى ناحيـة البـرية فظننت أنهـم قـوم قـد خرجوا الى النزهة وهـم خلقـاء أن يكـون معهـم سـفرة فاتبعت آثارهم حـتى انتهيت الى بغـال عليهـا رحـائل موقوفة على غـدير ، فأسرعت الى الغـدير فـاذا نسـوة مستنقعات فى المـاء ، فقلت : لـم أر كاليوم قـط ولا يوم دارة جلجل ! فانصرفت مستحييا ، فنادينني : يا صاحب البغـلة ارجـع نسألك عن شىء فانصرفت اليهن فقعدن الى حلوقهن فى المـاء ثـم قـلن : بالله لمـا أخبرتنا ما كان حـديث يـوم دارة جلجـل ؟ قـال : حدثنى جـدى وأنـا يومئذ غـلام حـافظ : أن امـرأ القيس كـان عاشقا لابنـة عـم لـه يقـال لهـا « عنيـزة » وأنـه طلبهـا زمـاناً فـلم يصـل اليهـا حتى كـان يـوم الغـدير وهـو يـوم دارة جلجـل . وذلك أن الحى احتمـلوا فتقـدم الرجـال وتخلف النسـاء والخدم والثقل(٣١) . فلمـا رأى ذلك امـرؤ القيس تخلف بعـدما سـار مع رجـالة(٣٢) قـومه غـلوة فكمن فى غيـابة(٣٣) من الأرض ، حتى مـر بـه النسـاء وفيهن عنيـزة ، فلمـا وردن الغـدير قلن : لـو نزلنـا

٣١ـ الثقـل : متـاع المسـافر .

٣٢ـ الرجـالة : الذين ليس لهـم ظهـر يركبونه فى السـفر .

٣٣ـ الغـلوة : قـدر رميـة بسـهم ، وكمن : استخفى ، والغيـابة من الأرض : المنهبط منهـا كالجـب والوادى ونحوهمـا .

فاغتسلنا فى هـذا الغـدير فذهب عنـا بعـض الكـلال • فنزلن الغـدير ونحين العبيـد ثـم تجـردن فوقعن فيـه فأتاهن امـرؤ القيس وهـن غوافل فأخـذ ثيابهن فجمعهـا وقعـد عليها وقـال : والله لا أعطى جـارية منكن ثوبهـا ولـو ظلت فى الغـدير يومها حتى تخـرج متجـردة فتأخذ ثوبهـا ! فأبين ذلك عليـه حتى تعالى النهـار وخشـين أن يقصرن عن المنـزل الذى يردنه فخرجن جميعا غـير عنيـزة فناشدته الله أن يطـرح اليهـا ثوبهـا فابى فخرجت فنظـر اليهـا مقبـلة ومدبـرة وأقبلن عليـه فقلن لـه : انـك قـد عذبتنـا وحبستنا وأجعتنـا ! قـال : فـان نحـرت لـكن ناقتى تأكلن منهـا ؟ قلن : نعـم فخـرط سـيفه فعرقبها ونحرها ثـم كشطها وجمـع الخـدم حطبـا كثـيرا فأججن نـارا عظيمة فجعـل يقطـع لهن من أطابيها ويلقيـه على الجمـر ويأكلن ويأكل معهن ويشرب من فضـلة خمـر كانت معـه ويغنيهن ، وينبذ الى العبيد من الكبـاب فلمـا أرادوا الرحيـل قالت احداهن : أنـا أحمـل طنفسته(٣٤) ، وقالت الأخـرى : أنـا أحمـل رحـله وأنسـاعه(٣٥) ، فتقسمن متـاع راحلته وزاده وبقيت عنيزة لـم يحملهـا شـيئا ، فقال لهـا : يا ابنـة الكرام لابـد أن تحمليني معـك فـانى لا أطيـق المشى فحملته على غـارب(٣٦) بعيرهـا . وكـان يجنـح اليهـا فيدخل رأسـه فى خدرها(٣٧) فيقبلها ، فاذا

٣٤ـ الطنفسة : الوسـادة فـوق الرحـل .
٣٥ـ الأنسـاع : سـيور تشـد بهـا الرحـال .
٣٦ـ الغـارب : اعـلى مقـدم السـنام .
٣٧ـ الخـدر : البيت والمـراد بـه هنـا السـتر يمـد ليحجب من وراءه .

امتنعت مـال حدجهـا (٣٨) فتقول : عقـرت بعـيرى فانـزل ، ففى ذلك يقـول :

ويـوم عقـرت للعذارى مطيتى
فيـا عجبـا من رحلهـا المتحمـل
يظـل العذارى يرتمين بلحمهـا
وشحم كهـداب الدمقس المفتـل(٣٩)
ويـوم دخلت الخـدر خـدر عنيزة
فقـالت لك الويلات انـك مرجـلى
تقول وقـد مـال الغبيط بنـا معـاً
عقرت بعيرى يا امـرأ القيس فانزل
فقلت لهـا سـيرى وأرخى زمـامه
ولا تبعـدينا من جناك المعـلل(٤٠)

والقصـة طـويلة فى المعلقـة أكتفى منهـا بهـذا القـدر الذى هـو أخف وأرفـق بمشـاعر القـارىء وأبعـد عن الافحاش الى حـد كبـير بالموازنة الى ما قصـه فى معلقته مؤثرا عـدم الاضافة فى هـذه الأحاديث التى تأبى الكثـير ممـا جـاء فيهـا مكـارم الأخـلاق وان كانت تصـور هـذا الجـانب من القصص أصدق

٣٨- الحـدج : الهـودج وهـو مركب تركبـه نسـاء الاعـراب .
٣٩- الهـداب : طـرف الثـوب ، والدمقس : الحـرير الأبيض ، والمفتل : المفتـول .
٤٠- الشـعر والشعراء ج ١ ص١٢٢ - ص١٢٥ طبـع دار المعـارف سـنة ١٩٨٢ ، تحقيق وشـرح احمـد محمد شـاكر .

تصـــوير • ويعـــد عمـــر بن أبى ربيعـــة أنجب تلاميذ امرىء القيس فى هـــذا الضـــرب من هـــذا القصص وآخذهـــم بأسبابه : تلقى أصـــوله عنـــه وخلفـــه فيـــه ، لكنه لـــم يلتزم حـــدوده ولا أخـــذ اخـــذه فيـــه عن متابعة غافلة بـــل مـــد أطرافه وفصـــل أحـــداثه وأمعن فى تصـــوير مشـــاهده وآدار حـــواره فى براعـــة ظاهـــرة واقتـــدار عجيب واستقصاء بعيـــد لا تعيبـــه مـــآزق الشـــعر أو تضـــطره الى تكلف أو اعتســـاف •

ومن أشـــهر قصصه فيـــه قصـــته التى أوردهـــا فى رائيتـــه الشـــهيرة :

أمن آل نعـــم أنت غـــــاد فمبـــكر
غـــداة غـــد أم رائـــح فمهجـــر(٤١)

وهى قصـــة جمعت الكثير من عناصر القصة الحديثة : قصيرة وذات حـــدث وبســـيطة وتعـــرض لجانب من الحيـــاة فى لحظـــة محـــددة وذات دلالـــة •

يبـــدأ عمـــر القصـــة بأبيـــات يصـــف فيهـــا حبـــه لنعـــم ورسولها اليـــه ووقوفها متلهفـــة تنظـــر طلعتـــه وتتحـــدث الى صـــاحبة لهـــا :

قفى فانظرى أســـماء هـــل تعرفينه
أهـــذا المغيرى الذى كان يذكـــر ؟

٤١- القصـــيدة فى ديـــوانه ص٩٢ - ص١٠١ مطبعـــة السعادة الطبعـــة الثانيـــة ســـنة ١٩٦٠ م ، والقصـــيدة ٧٥ بيتـــاً .

أهـذا الذى أطريت نعتا فـلم أكن
وعيشك أنسـاه الى يـوم أقبـر

فقالت نعـم لاشـك غـير لونـه
سرى الليـل يحيى نصـه والتهجر

لئن كان ايـاه لقـد حـال بعـدنا
عن العهـد والانسان قـد يتغـير

ويرسم ملامح شخصية البطل لا يبالى لفـح الشمس ولا لسعة البـرد جـواب آفـاق عليه وعثـاء السفر ، نحـل بدنـه حتى لـم يعـد لـه ظـل على الأرض :

رأت رجلا أمـا اذا الشمس عارضت
فيضحى وأمـا بالعشى فيخصـر

أخـا سـفر جواب أرض تقـاذفت
بـه فلوات فهـو أشعث أغبـر

قليـل على ظهـر المطيـة ظلـه
سـوى ما نفى عنـه الرداء المحبـر

ويمضى ابن أبى ربيعـة فيصف نفسـية البطـل ومشـاعره نحـو صاحبته ـ الشخصية الثانية فى القصـة ـ حيث لا يستطيع صـبرا على عـدم رؤيتهـا فيصـوره وقـد وقف خـارج الحى خائفـا يترقب يدبـر أمـره كيف يصـل وقـد جهـل بيتهـا أين يقـع بعـد أن غـاب قمـر كـان ينتظـر غـروبه على حـد قـولـه :

فلمـا فقدت الصوت منهم وأطفئت
مصابيح شـبت بالعشاء وأنـؤر
وغـاب قمـير كنت أهـوى غيـوبه
وروح رعيـان ونـوم سـمر

لكنـه يستفتى قلبـه ويستهدى رائحته حتى اذا هـدأ الحى ونـام القـوم فاجـأ صاحبته محييـا :

فحييـت اذ فاجأتهـا فتـولهت
وكـادت بمخفوض التحية تجهـر

ودار بينهمـا الحـديث الآتى :

وقالت وعضت بالبنـان فضحتنى
وأنت امـرؤ ميسور أمرك أعسـر
أرأيتك اذ هنـا عليك ألـم تخـف
رقيبـا وحـولى من عدوك حضـر
فوالله ما أدرى أتعجيـل حاجـة
سرت بك أما قـد نام من كنت تحذر
فقلت لها بل قادنى الشوق والهـوى
اليـك وما نفس من النـاس تشعر
فقالت وقـد لانت وأفـرخ روعهـا
كـلاك بحفـظ ربـك المتـكبر

فأنت أبـا الخطاب غـير مدافـع
عـلى أمـير ما مكثـت مؤمـر

ويمضيان لحظـات جميلة يصفها فى سـعادة متوهجة :

وبت قـرير العين أعطيت حـاجتى
أقبـل فاهـا فى الخـلاء فأكثـر

فيـالك من ليـل تقـاصر طـوله
وما كـان ليلى قبـل ذلك يقصـر

ويالـك من ملهى هنـاك ومجـلس
لنـا لـم يكـدره علينـا مكـدر

ويطويان الليـل يمـر بهمـا الزمان عجـلا وتلـوح خيـوط الفجـر ويستيقظ قومهـا فيتـأزم الموقف :

فلمـا تقـضى الليـل الا أقلـه
وكـادت توالى نجمـه تتغـور

أشـارت بأن الحى قـد حان منهـم
هبوب ولكن موعـد منـك عـزور

فمـا راعـنى الا منـاد : ترحـلوا
وقـد لاح معروف من الصبح أشقر

فلمـا رأت من قـد تنبـه منهـم
وأيقاظهم قالت : أشر كيف تأمـر

فقـلت أباديهم فـاما أفوتهـم
وامـا ينـال السيف ثـأراً فيثـأر

فقـــالت أتحقيقا لمـــا قـــال كاشـــح
علينا ، وتصديقا لمـــا كـــان يؤثـــر

فـــان كـــان مالابد منـــه فغـــيره
من الأمـــر أدنى للخفـــاء وأســـتر

أقـــص على أخـــتى بـــدء حديثنـــا
ومـــالى مـــن أن تعلمـــا متأخـــر

لعلهمـــا أن تطلبـــا لـــك مخرجـــا
وأن ترجبا ســـربا بمـــا كنت أحصر

ويلقى الشـــاعر القصاص نظـــرة على موقفهـــا ، وفى أى حـــال لقيت أختيهـــا ولقيتاها ومـــاذا قصت عليهمـــا من أمرهـــا تطـــلب النصـــح عندهما :

فقامت كئيبـــا ليس فى وجههـــا دم
من الحـــزن تذرى عبـــرة تتحـــدر

وقـــامت اليهـــا حـــرتان عليهما
كساءان من خـــز دمقس وأخضـــر

فقالت لأختيهـــا أعينـــا على فـــتى
أتى زائرا والأمـــر للأمـــر يقـــدر

فأقبلتا فارتاعتـــا ثـــم قالتـــا
أقـــلى عليـــك الهـــم فالخطب أيسر

واقترحت الصغرى أن تعـــيره بعض ملابسها وأن يخـــرج معهن متخفيـــا فى زى فتـــاة :

فقالت لها الصغرى سأعطيه مطرقى

ودرعى وهذا البرد ان كان يحـذر

يقـوم فيمشى بيننـا متنـكرا

فـلا سرنا يفشـو ولا هـو يظهـر

وتحـل العقدة ويخـرج البطـل على هـذا النحـو بين فتيات ثلاث ثنتين مراهقتين وثالثة ناضجة .

فكان مجـنى دون من كنت أتـقى

ثلاث شخوص : كاعبـان ومعصـر

فلمـا تجـاوزوا الحى وأمنـوا الفضيحة وبلغـوا شـاطىء الأمـان أخـذن يعاتبنه على غوايتـه :

فلمـا أجـزن سـاحة الحى قلن لى

أمـا تتقى الأعـداء والليل مقمـر

وقلن : أهـذا دأبك الدهـر سادرا

أمـا تستحى أو ترعوى أو تفكر ؟!

ثـم تكـون المفاجأة التى لـم تكن متوقعة . فالمـرء يتوقع هـذا العتـاب الأخـير أنهن لا يردن منـه أن يعـود ولا أن يرينه مـرة أخـرى على الأقـل فى الصـورة التى جـاء عليهـا ولكن الأمـر على العكس من ذلك ، انهن يشجعنه على العـودة وينصحنه أن يضـلل النـاس حين يجىء :

اذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
لكى يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

تلك قصة عمر وهى قصة متلاحمة الأبيات متتابعة الصور والخواطر لا يرى فيها أثارة من تفكك أو مباعدة ولا أثارة من فضول أو حشو يمكن الاستغناء عنه ، وانما يرى فيها حوار سريع المناقلة سديد المساجلة محبوك الأطراف ينقل الوقائع فى لغة سهلة تخلو من الغريب وتتميز بواقعية واضحة وفيها النساء كما فى الحياة حديثا وطباعا وأخلاقا واشارة(٤٢) .

وهكذا تجلى لنا تفوق التلميذ عمر بن أبى ربيعة على أستاذه امرىء القيس فى هذا الفن القصصى .

والحق أن عصر عمر بن أبى ربيعة قد تميز بنضج القصة الشعرية حيث رقت واستطالت واستكملت أركانها وبلغت أوجها (٤٣) .

ولعل هذا يقوم دليلا على ما أثبته فى ثنايا هذا البحث من أن القصة العربية حقيقة واقعة ثابتة وأن جذورها تمتد الى أعماق أقدم عصور الشعر العربى وهو العصر الجاهلى بيد أنها بلغت رشدها واستوفت عناصرها فى العصر الأموى .

٤٢- انظر القصة القصيرة ، د. الطاهر أحمد مكى ص٤٥ .
٤٣- المرجع السابق ص ٤٠ .

(هـ) عناصر القصة ومـدى تطبيقها على القصة فى الشعر القديم

تعـارف النقـاد المحدثون على أن كـل قصـة لابـد فيهـا من توافـر العنـاصر الآتيـة :

١ ــ الحـدث ، ٢ ــ السـرد ، ٣ ــ البنـاء ، ٤ ــ الشخصية ٥ ــ الزمـان والمـكان ، ٦ ــ الفـكرة .

هـذه هى العنـاصر الرئيسة التى يراهـا النقـاد ضرورية فى كـل قصـة . والسـؤال الآن : هـل توافرت هـذه العنـاصر فى القصـة فى الشـعر العـربى القـديم ؟ وهـل صحيح ما قيـل عن القصـة العربية القـديمة أنهـا لـم تعـن حـق العنـاية بتصـوير ملامـح الأشخاص والسـمات وان كانت تنـم عن كثير من صـفات النفس وطبـائع الفطـرة(٤٤) ؟

بدايـة أقـول : ان القصـة فى عصرهـا الأول ــ عصـر الجاهلية ــ لـم تستكمل جميـع العنـاصر الفنيـة التى اشترطها النقـاد للقصـة فى العصـر الحـديث . ذلك أن القصة الجاهلية طـور ابتدائى من أطـوار القصـة العربية بعـامة وما كان للطور الابتدائى أن يبـلغ النضـج دفعـة واحـدة ولا أن يستكمل كـل الخصائص طفـرة ، وانمـا النضـج والكمال قـد حـدث للقصـ العربية فى عصورها التالية . نستطيع أن نتبين ذلك بالمـوازنة بين كـل من قصـة امـرىء القيس وعمـر بن أبى ربيعـة السابقتين .

٤٤ــ انظـر القصة العربية القديمة ص٥٨ للأستاذ : محمد مفيد الشوباشى.

والقصة الجاهلية شأن أى عمل أدبى شعر أو نثر بل شأن أى مخلوق وأى موجود يوجد فى هذه الحياة . فقد اقتضت سنة الله فى خلقه ألا يوجد المخلوق مكتمل النضج تام النمو ، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ومع ذلك لو أردنا أن نتلمس فى القصة القديمة ما تعارف عليه النقاد من خصائص تطبع كل قصة بطابعها ويتحتم وجودها فى كل عمل قصصى لوجدناها فى القصة الجاهلية ولو بصورة ما . فهناك فى القصة الجاهلية تبدو موقع الأحداث والزمن الذى تقع فيه ، والمقاييس التى يقدر بها مبلغ الوصف ومنتهاه بالتشبيه المحكم الدقيق والتمثيل البارع العجيب . وللمقدمين وأصحاب المزية من شعراء العربية فى ذلك كله حظ موفور وباع طويل .

ومن يتأمل قصة الحطيئة التى أوردتها على سبيل المثال يرى الحدث فيها وقد تمثل فى مجموعة الوقائع التى دارت بين الأب وابنه مقتبسا لابنه من قصة اسماعيل مع ابراهيم عليهما السلام ، وقد جاء السرد فيها على نمط الطريقة المباشرة التى يتحول فيها راوى القصة الى مؤرخ يسجل الأحداث ، وقد جاء فيها ما يمكن أن يسمى بالطريقة الذاتية عندما يتحدث مؤلف القصة عن نفسه كما لو كان واحدا من أبطال القصة فأتت القصة شبيهة بالترجمة الذاتية الخيالية .

أمـا البنـاء فقـد اتخـذ الحطيئة من شخصية الأب ـ وهـو يعنى نفسـه ـ بطـلا يربط بأعماله بين عناصر القصـة وأحداثها .

وأمـا الشخصية فقـد تجلت فى المشـهد الأول حين صـور الحطيئة أشخاص القصـة فى صـورة رزيـة مستكرهة : أسـرة مضـيعة ، أب فاسـد الـرأى وأم عجـوز لا حول لهـا ولا طول وثلاثـة أطفـال حفـاة عـراة قـد عضهم الدهـر بنـابه .

ولعـله أراد من رسـم شخصيات القصـة على هـذه الصورة أن يشـير من طـرف خفى الى أن أصحاب قصـته ـ على ما كـان بهـم من ضـر ومترية ـ لـم يقصـروا فى قـرى الضـيف ولا بخـلوا عليه بالحيـاة ، انهـم يريدون أن يقـروه بهـا حيـن أعيـاهم أن يقـروه بالـزاد فيتقـدم الابن اقتـداء بسنن آبائه الأمجـاد يرغب الى أبيـه أن يهيىء من لحمـه قـرى لضـيفه ويهـم الأب أن يفعـل ايثـارا لحـق الضيف على حيـاة فـلذة كبـده ونزولا على طبـع العـربى الأصـيل فى البـذل والسـخاء لـولا أن تداركته عنـاية الله .

وأمـا الزمـان والمكان : فالزمـان قـد ارتبـط بشخصيات القصـة التى صورهم بالصـورة التى ذكرهـا فقـد صورت القصة حيـاة وعـادات العـرب زمـن وقـوع القصـة وهـو العصر الجاهلى . والمكان قـد تكفلت القصـة بتحديده وهـو البـادية .

والفـكرة فى القصة تدرك لأول وهـلة فهى من القصة الدرامية التى تتصرف فيهـا الشخصيات تصرفات تحتمهـا ظروف المجتمـع وعـاداته .

ولو أردنا كذلك أن نستخرج عناصر القصة ونطبقها على كل من قصة المرقش وامرىء القيس لوجدناها بادية واضحة ، فضلا عن أن تلك العناصر قد استكملت بل وبلغت تمتها عند ابن أبى ربيعة كما سبقت الاشارة اليه .

نعم . قد يكون الحدث فى القصة الجاهلية لم يتوفر له الحبكة الفنية التى تحتم أن ترتبط أحداث القصة ارتباطا منطقيا يجعل من مجموعها وحدة ذات دلالة محدودة .

أقول : قد لا يتوفر فى القصة الجاهلية من حيث تلك الحبكة بالمعنى الذى ذكرت بصورة كاملة غير أنى أقول انها توفرت لها بصورة ما .

ولعل فى هذا يكون الرد على أولئك الذين يحاولون أن يجردوا القصة العربية فى كل عصورها مما يجعلها قصة .

هذا والكمال أولا وآخراً لله وحده ..

وبالله التوفيق ،،

دكتور / محمود جمعة أمين

ثبت بالمراجع

١ — الأغانى للأصفهانى • تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطى — مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٣ هـ •

٢ — أيام العرب فى الجاهلية • جاد المولى وآخرين — مطبعة الحلبى القاهرة ١٩٥٨ م •

٣ — تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى • د• شوقى ضيف دار المعارف بمصر ١٩٨١ م •

٤ — تاريخ الأدب العربى • كارل بروكلمان — دار المعارف — ط ٣ — ١٩٦٢ م •

٥ — تاريخ آداب اللغة العربية • جرجى زيدان — دار الهلال ١٩٥٧ م •

٦ — تاريخ الفلسفة فى الاسلام • « ديبور » ترجمة عبد الهادى أبو ريدة — لجنة التأليف والترجمة والنشر • القاهرة ١٩٥٧ م •

٧ — تاريخ اللغات السامية • « أرنست رينان » — لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٢٩ م •

٨ — تهذيب اللغة • للازهرى • الدار المصرية للتأليف والنشر — تراثنا ١٩٦٦ م •

٩ — دراسات فى الأدب — فن القصص فى كتاب الجاحظ • لمحمد مبارك • دمشق — الطبعة الأولى ١٩٤٠ م •

١٠ــ ديوان الحطيئة برواية ابن السكيت ، تحقيق د. نعمان طه مطبعة المدنى نشر الخانجى ١٩٨٧ م .

١١ــ ديوان عمر بن أبى ربيعة ــ مطبعة السعادة ط ٢ ــ ١٩٦٠ م.

١٢ــ الشعر والشعراء . لابن قتيبة . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر . دار المعارف ١٩٨٢ م .

١٣ــ طبقات فحول الشعراء لابن سلام . مطبعة المدنى ــ ١٩٧٤ م .

١٤ــ فى الأدب الجاهلى . د. طه حسين . دار المعارف ط ١٣ ــ ١٩٧٩ م .

١٥ــ القصة العربية فى العصر الجاهلى . د. على عبد الحليم محمود . دار المعارف ١٩٧٩ م .

١٦ــ القصة القصيرة دراسة ومختارات . د. الطاهر مكى دار المعارف ط ٦ ــ ١٩٩٢ م .

١٧ــ القصيرة فى التراث العربى . يوسف الشارونى . مجلة الهلال مايو ١٩٧٣ م .

١٨ــ القصص فى أدب العرب ماضيه وحاضره لمحمود تيمور طبع الجامعة العربية بالقاهرة ١٩٥٨ م .

١٩ــ القصص القرآنى فى منطوقه ومفهومه . للأستاذ عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربى ــ مطبعة المدنى ١٩٧٣ م .

٢٠ــ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . حاجى خليفة طبع وكالة المعارف ١٩٣١ م .

٢١ــ لسان العرب لابن منظور • المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٦٦ م •

٢٢ــ النثر الفنى فى القرن الرابع • د• زكى مبارك • دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٣٤ م •

٢٣ــ النقد الأدبى العام • د• غنيمى هلال • دار العودة بيروت ١٩٧٣ م •

٢٤ــ المفضليات • للمفضل الضبى • تحقيق الأستاذين : عبد السلام هارون ، أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ١٩٤٣ م •